

الموضوع الأول: الشعر وأدواته:

أولاً: مفهوم الشعر:

١- عمد ابن طباطبا إلى تعريف الشعر بأنه «كلام منظوم» وأن هذا النظم هو الذى باعد بينه وبين المنثور الذى يستعمله الناس فى مخاطباتهم، ثم ربط بين الطبع والذوق من جهة والقدرة على النظم من جهة أخرى، ونبه على عدم احتياج من صح طبعه وذوقه إلى العروض فيما ينظم، أما من اضطرب عليه الذوق فلن يجد عوضاً فى العروض وإن حذقه، حتى تصير معرفته الاستفادة من العروض كالطبع الذى لا تكلف معه، وتلك رؤية أعمق من رؤية من رأى الشعر كلاماً موزوناً مقفى ورأى الوزن والقافية تكفيهما معرفة العروض وإن حُرّم الشاعر الذوق والطبع اللذين بهما يجول على المعانى فيصوغها بما يميزها عن النثر، ومن وقفوا فى تعريف الشعر عند الوزن والقافية قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) فى كتابه «نقد الشعر» إذ يقول: «وليس يوجد فى العبارة عن ذلك أبلغ ولا أوجز مع تمام الدلالة من أن يقال فيه: إنه قول موزون مقفى يدل على معنى»^(١) وتبعه فى هذا التعريف ابن سنان الخفاجى (ت ٤٦٦هـ) فى كتابه «سر الفصاحة»^(٢).

ومجمل ما تميز به تعريف ابن طباطبا، إدراكه الشعر نظمًا إن عدل به عن جهته مجته الأسماع وفسد على الذوق، وهذا ما فصله عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) فى دلائل الإعجاز وهو يعرض أسرار النظم فى الشعر والنثر، وهو عرض فنى تطبيقى جوهره الطبع والذوق، إذ يقول: «فأما من كانت الحالان والوجهان عنده أبدأً على سواء [أى مزية الحسن وأسباب القبح فى الكلام] وكان لا يتفقد من أمر النظم إلا الصحة المطلقة، وإلا إعراباً ظاهراً، فما أقل ما يُجدى الكلام معه، فليكن من هذه صفته عندك بمنزلة من عدم

(١) نقد الشعر: ٦٤.

(٢) سر الفصاحة: ٢٨٦.

الإحساس بوزن الشعر، والذوق الذى يقيمه به، والطبع الذى يميز صحيحه من مكسوره، ومزاحفه من ساله، وما خرج من البحر مما لم يخرج منه»^(١).

فالنظم - فى الشعر والنثر - تركيب مؤسس على المعانى التى قصدها الناظم وصاغها بإحساس وذوق وطبع، وقد جعل عبد القاهر ذلك موصولاً بالمعانى المستفادة من تراكييب النحو.

ثم أقام ابن طباطبا من الذوق والطبع معياراً يضبط به النظم، لا تفيد دراسة العروض فى ذلك إلا إذا تحولت تلك الدراسة طبعاً لا تكلف معه ويطابق هذا القول رأى عبد القاهر فى عدم الأخذ بظاهر المنظوم، والاعتماد فى ذلك على الإحساس والذوق والطبع.

ثانياً: أدوات الشعر وثقافة الشاعر؛

سلك ابن طباطبا مسلكاً تعليمياً توجيهياً فيما يمكن للشاعر فى فنه، ويوفر للشعر أسباب القوة والجمال والتناسق، وقد سرد ذلك كله متتابعاً مقدماً الأزواد الثقافية للشاعر على دعائم الشعر ومقوماته الفنية.

لم يخرج ابن طباطبا عن المأثور فيما يجب على الشاعر أن يثقفه، فأوجب عليه أن يتوسع فى علم اللغة، ويبرع فى الإعراب، ثم يشحذ قريحته برواية فنون الآداب، ويثرى معارفه بتعريف أيام الناس وأنسابهم ومناقبهم ومثالبهم ويحيط بطريقة العرب فى المخاطبات والصفات والأمثال، ويقف على بلاغتها فى ألفاظها وجزالة معانيها، ويفطن إلى حسن مبادئها وحلاوة مقاطعها، وإفاء كل معنى حظه من العبارة.

ثم عليه أن يجتنب سفاسف الكلام، وسخيف اللفظ، والمعانى المستبردة والتشبيهات الكاذبة، والإشارات المجهولة، والأوصاف البعيدة، والعبارات الغثة.

(١) دلائل الإعجاز: ٢٠٢.

وبالنظر فيما أوجه ابن طباطبا وما حذر منه، نجد معنيًا بثقافة الشاعر عناية بالغة متنوعة. وأنه - وهو في القرن الرابع زمن نضج الحداثة - لم يطرح طريقة العرب، بل ألزم بها الشعراء إلزاماً رآه يعصمهم من الخلل فيما ينظمونه، كما قرن بين ثقافة الشاعر المؤسسة على الموروث النقدي والبلاغي واللغوي والتاريخي، وبين الصورة المثلى للقصيدة في معانيها وقوافيها.

ففي المعنى يقول: «حتى لا يكون ملفقاً مرقوعاً، بل يكون كالسبيكة المفرغة والوشى المنمنم، والعقد المنظم، والرياض الزاهرة، فتسابق معانيه ألفاظه فيلتذ الفهم بحسن معانيه كالتذاذ السمع بمونق لفظه» (العيار ٧) ومجمل هذا توجيهه الشعراء نحو التناسب والملاءمة بين المعاني من جهة، وبين المعاني والألفاظ الدالة عليها من جهة أخرى، وأن تقع الألفاظ بقوة استدعاء المعاني لها.

وفي القوافي يقول: «وتكون قوافيه كالقوالب لمعانيه، وتكون قواعد للبناء يتركب عليها ويعلو فوقها، ويكون ما قبلها مسبوقاً إليها ولا تكون مسبوقة إليه فتقلق في مواضعها، ولا توافق ما يتصل بها، وتكون الألفاظ منقاداً لما تراد له، غير مستكرهة ولا متعبة...» (العيار ٧) وهو في هذا القول يؤكد من طرق مختلفة على وجوب وقوع القوافي في مواضعها كالشيء المرتقب الذي يسعى نحوه ما قبله سعياً لازماً لتمامه واكتمال صورته، خلافاً لتلك القوافي المفروضة بلا استدعاء أو إلحاح مما سبقها.

وبهذا فإن فضل ابن طباطبا يتمثل فيما صاغه مجموعاً على نحو بديع، فيه ما يؤكد على استيعابه ما تناثر في مصنفات سابقه، وفيه تفصيل الأدباء النقدة للقفائية المتمكنة والقلقة، وعدم الفصل بين المعاني وألفاظها، أو ترجيح أحدهما على الآخر في النظم، ثم ترتيبه عناصر الشعر ترتيباً مؤتلفاً موصولاً بعلوم ومهارات لا غناء عن بعضها في بناء القصيدة.